هويّة اليافعات في أثناء الصراع: تجربتي الشخصيّة ككويتيّة فلسطينيّة

تغريد القدسي - غبرا

عند البدء بسردي هذا يجب أن أذكر ما مرّت به ابنتاي وهُما بعمر الزهور في أثناء احتلال العراق للكويت في العام 1990، والذي رَسَمَ مَلامح شخصيّتهما ذات الهويّة المُختلَطة والمُركَّبة، وكيف يُمكن أن تتذبذب تجليّاتها في الظروف المُختلفة. جَعَلَني ذلك أركِّز أوّلاً على أنّهما كويتيّتا الجنسيّة من أصولٍ فلسطينيّة. فكويتيّتي أنا تَنبع مِن أنّني تربَّيْت في الكويت ولم أعرف وطناً «كحقيقة» غيرها ولكنّي عشتُ الوطن فلسطين «كذاكرة» من خلال تجربة أمّي وأبي. ولا بدّ من أن أذكر أيضاً أنّ الكويت بلد كالفسيفساء قلّما نجد عائلة ليس لها جذور هنا أو هناك في المناطق المُحيطة بها جغرافيّاً؛ إلّا أنّ الكويت وَعَتْ حجْمَها وموقعها مبكراً ما رَسَمَ مَعالِم تصرّفها وشكَّل سياستها الخارجيّة. هي الدولة الفتيّة التي تُحافظ على بقائها بالتزام الحياد، وبخاصّة بين الدول الثلاث الكبيرة المُحيطة بها تاريخيّاً وجغرافيّاً وهي العراق، السعوديّة، وإيران.

سأخطّ أفكاري وتجربتي الشخصيّة كسيّدة كويتيّة فلسطينيّة. ربَّيتُ ابنتَيَّ بشكلٍ عامّ على الإحساس بالفخر بحقيقتهما وعلى أنّ هويّتهما المُختلَطة تتأتّى من الكويت وفلسطين. جاء الصراع والتهديد في أثناء احتلال العراق للكويت

في العام 1990 فأصبحنا في حيِّز الخَطَر لأنّ الاحتلال هدَّد سلامتهما. كتبتُ بتفصيلٍ عن موضوع الهويّة والفخر بها عندما تتعرّض للانتهاك والتهديد في أثناء الصراع في سيرتي التي نُشرت في بيروت بعنوان «عندما يكون امتلاك العقل عبئاً» (شباط/فبراير 2021). لطالما شكَّل موضوع الهويّة المُختلَطة أو المُركّبة خصوصاً، هاجساً، جَعَلَني أركِّز عليه وعلى الفخر بالعروبة أوّلاً، ثمّ على الإحساس بعُمق الهويّة وغِناها عندما تكون مُختلَطة أو مركَّبة؛ وفي حالتنا هنا هويّة عربيّة بُعمقَيْن واضحَيْن هُما الكويتيّ والفلسطينيّ. فالهويّة هنا هويّة عربيّة تحمل في ذاتها شقَّيْن، بلا أيّ تضارُبٍ بينهما. إنّها وكما أراها علاقةَ تكامُلٍ وليس تنافُرٍ من الجدير التأكيد عليه. السؤال يصبح هل للصراع السياسيّ أثرٌ على ذلك؟ كيف يُمكن أن يؤثِّر العنفُ فيها وهل يُمكن للهويّة أن تخبو أو تتجلّى بأشكالٍ أخرى نتيجة الصراع؟ وهل لرأي الأغلبيّة مِن وزنٍ هنا؟

شاء القدرُ أن تنتقلَ عائلتي الفلسطينيّة إلى الكويت أوائل الستّينيّات من القرن الماضي. ترعرعتُ في الكويت وارتدتُ مَدارِسَها في عهد التعليم الذهبيّ. وعندما التحقتُ بجامعة الكويت وتعرَّفتُ إلى زوجي الكويتيّ الجنسيّة من أصولٍ فلسطينيّة، والذي كان مُقاتِلاً يُدافع عن الهويّة الفلسطينيّة، أصبحتُ كويتيّة الجنسيّة قانوناً، بحُكم الزواج، وأصبح أبنائي كويتيّين من أبٍ كويتيّ بحُكم الولادة. للاختصار فإنّ أبنائي بعامّة عاشوا كويتيّين وفلسطينيّين. لطالما ردَّدتُ عليهم أنّ الفلسطينيّ والكويتيّ عربٌ أوّلاً وأخيراً، ما يَخلق تلاقياً وليس تنافُراً بينهما. هاتان الهويّتان العربيّتان شكّلتا الهويّة المُختلَطة لأبنائي. اللّغة واحدة وإنْ اختلفتِ اللّهجات، التاريخ واحد يخضع لحقيقة أنّه بعد انهيار الدولة العثمانيّة، وُضعِت الكويت تحت الانتداب البريطانيّ وفلسطين كذلك مع فارق أنّ فلسطين أُعطِيَت لليهود بحسب «وعد بلفور» المشؤوم. الهويّة الفلسطينيّة التي حاول المشروعُ الصهيونيُّ مَسْحَها، والتي رزحت تحت الاحتلال الإسرائيليّ وقيام دولة الاحتلال بنكبة العام 1948 ثمّ بنكسة العام 1967. هذه الهويّة المعنَّفة والمهدَّدة ترعرعتْ في الكويت وعبَّرت عن نفسها بطُرقٍ عديدة. الاستقرار والإحساس بالأمان جَعَل ابنتَيّ تعيشان هذه الهويّة الفلسطينيّة التي حرصت الكويت من بدايتها على احتضانها. أقاربنا ومعارفنا بحُكم النسب والعشرة هُم على الجانبَيْن الفلسطينيّ والكويتيّ.

في العام 1990 وعندما أحسّ الكويتيّون بظُلم الاحتلال، عشْنا أنا وابنتاي اليافعتان معنى الهويّة الفلسطينيّة المسلوبة مرّةً أخرى، لكنْ ليس من الذاكرة هذه المرّة ولكنْ من الحقيقة والواقع. كأنّ كويتيّتنا طَفَتْ على السطح وبانَتْ للعيان، فهي احتاجت إلى أن تُعبِّر عن نفسها وتؤكِّدها. الظرف تطلّبَ أن تكون الهويّة المعنَّفة والمهدَّدة هنا بحاجة إلى الحماية. لقد عِشنا وقتَنا نؤكِّد على عدم اختلاف الهويّتَيْن الكويتيّة والفلسطينيّة أو تنافرهما. ولكنّ التذبذب هنا كان واضحاً، فتارة نُؤكِّد هويّتنا الفلسطينيّة وتارة الكويتيّة، وذلك بحسب وضْع السلامة والأمن في وقتها والأجواء السياسيّة المُحيطة والتهديد الذي يجلبه التأكيد على كلٍّ منهما.

في العام 1990، في أثناء احتلال العراق للكويت، كانت ابنتاي يافعَتَيْن في مُقتبل العمر، ابنتي الكبيرة في العاشرة من عمرها والصغيرة في الرّابعة. كنتُ واضحةً في زرْعِ هذا الفخر بهويّتهما المُركَّبة واعتبارها إغناءً لهما وليس انتقاصاً. فعلتُ ذلك في أثناء ترعرعهما بإيعازٍ من ضميري وقناعاتي التي أعتبرها «متفتِّحة وليبراليّة». وفي الكويت بَرزتْ وتعمّقت خاصيّة غنى الهويّة عندما تكون مُختلطة أو مركَّبة والحاجة إليها من أجل الصحّة النفسيّة للفرد كي لا يتعرّض لأيّ شكلٍ من أشكال التنمُّر أو الاضطهاد أو الابتزاز بشأن خلفيّته المُغايرة للأغلبيّة. في أثناء احتلال الكويت بَرزت الحاجة إلى التركيز على أمن ابنتيَّ وسلامتهما وعدم الحديث أو التركيز حتّى على ذِكر الهويّة الكويتيّة، فجأة تجدنا نريد أن نخفِيَ الشقّ المهدَّد، الكويتيّ، وذلك إلى أن نُصبح خارج الخطر. الكويت التي أضحت عراقاً بعد احتلال العراق لها وضمِّها له في العام 1990. همّي في أثناء احتلال الكويت أصبح سلامتهما نتيجة صِغر سنّهما. كان الهمّ أن أخرج معهما إلى العالَم الخارجيّ، خارج الكويت التي أضحت العراق، حيث لا يُمكن لأحدٍ أن يُهدِّدهما لأنّهما تمتلكان الجانب الكويتيّ على الرّغم مِن وجود الإطار العربيّ. ولكنّ الإطارَ العربيّ كان مُشرذَماً حينها والرؤية غير واضحة. لم أحفل آنذاك للآثار النفسيّة التي قد تؤثِّر فيهما، فهمّي كان سلامتهما الجسديّة الملموسة، أمّا السلامة النفسيّة، فأستطيع التعامُل معها في ما بعد. ولذا طلبتُ منهما عندما علقْنا قسراً في بغداد مع ما يُسمّى «الدّروع البشريّة» أن تتصرّفا كفلسطينيّات لحمايتهما. لم أشكّ أنّ كونهما كويتيّتَين يُمكن أن يقوِّض فرصتنا للخروج خارج نطاق الخطر، أي خارج العراق. لا بدّ من ذكر أنّنا كنّا بصدد الخروج مع

الرعايا الأميركيّين إلى أميركا، أنا وابنتاي، لأنّ الصغيرة تُعتبر أميركيّة المَولد. ولكنّ الشكّ بنا قوَّض هذه الفرصة فبقينا في بغداد لأسبوعَين نُحاول إثبات أنّنا أيّ شيء إلّا كويتيّات! كيف أثّر ذلك على المدى البعيد؟ أنا أؤكِّد أنّ لذلك بصماتٍ وآثاراً بعيدة المدى.

لنأخذ مثالاً على ذلك، عندما حاولنا الخروج من بغداد إلى العالَم الأوسع طالبين الأمان في سياق ترحيل الرعايا الأميركيّين، لم يكُن مُمكناً لابنتَيّ الصغيرتَيْن اللّتَيْن لا يُمكنهما فهْم الأمور بدقائقها وتعقيداتها، أن تستوعبا عدم قدرة بقيّة أفراد الأسرة على أن ينضمّوا لنا أو يخرجوا معنا. برزت الحاجة إلى التركيز على أنّنا فلسطينيّون ولا صلة لنا بالجانب الكويتيّ تفادياً للتهديد والتعنيف عندما علقنا في بغداد مع ما يُسمّى «الدروع البشريّة». من المهمّ عدم إغفال أنّنا ككويتيّين أضحينا عراقيّين، وأنّه بات من غير المسموح لنا مغادرة العراق، وكان علينا أن نؤكِّد بالتالي أنّنا فلسطينيّون ولسنا كويتيّين.

بعد تحرير الكويت في العام 1991استمرّت المُعاناة بشكلٍ أخر يتعلّق بالشقّ الفلسطينيّ من هويّتنا ومُحاولة عدم إبرازه بل حتّى محاولة إخفائه مرّة أخرى من جانب فلسطينيّين كُثر أو مَن هُم من أصول فلسطينيّة. الأمان والسلامة حدّدتا ذلك على الرّغم مِن أنّي كنتُ أركِّز على حقيقة أنّنا لم نفعل إلّا ما نفخر به وهو نابع من قناعتنا بعدم وجود أيّ تضارب بين الهويّة الكويتيّة والفلسطينيّة، على الرّغم مِن أنّ الوضع السياسيّ خلَقَ تجاذباتٍ محدَّدة لم تكُن في الحسبان على أرض الواقع. فالجانب الفلسطينيّ الذي اكتوى بنار السياسة الغربيّة كان ضدّ التحالف. أمّا الكويتيّ الذي كان يريد تحرير الكويت، فكان مستعدّاً للتحالُف حتّى لو مع الشيطان لتحرير الكويت.

ابنتي الكبيرة تُخبرني بعد سنينٍ عديدة أنّها كانت تُخفي حقيقة أنّها كويتيّة من أصولٍ فلسطينيّة حتّى لا تتعرّض لأيّ شكلٍ من أشكال التنمُّر أو الابتزاز. أخبرتني مرّة عن صديقتها الفخورة بأصولها الإيرانيّة والمُغايِرة لأصولنا الفلسطينيّة، وكيف حاولَت أن تُفهمها أنّنا جميعنا، نحن وهي، لا علاقة لنا بما يحدث. وفي أثناء حرب الخليج الأولى، ولأنّ العراق وإيران كانتا مُتحاربتَيْن، لم يكُن من المُمكن لها التعبير عن هويّتها على الرّغم من صِغَر سِنّها. ما الأثر النفسيّ الذي يخلقه هذا التذبذب في الوضع السياسيّ الذي يفرض على المرء، وخصوصاً اليافع، التأكيد على ولائه إلى أيٍّ كان، من أجل حماية نفسه أوّلاً ثمّ مكتسباته؟ ما الأثر الذي يُخلِّفه ذلك نفسيّاً وسلوكيّاً على المدى البعيد؟

واليوم ونحن نُراقِب ونعيش ثورة حَيّ الشيخ جرّاح في القدس التي ما هي إلّا تعبير آخر عن الهويّة واضطهادها، تجدُنا نحسّ بأهميّة ما تمّ زرعه بابنتَيّ عندما كانتا تكبران. لقد تَرعرعتا في أجواءٍ وطنيّة عروبيّة وأحسَّتا بفلسطينيّتهما كما بكويتيّتهما. أمدَّهُما ذلك بالأمان والقوّة والإحساس بحريّة التعبير عن إنسانيّتهما والانطلاق للفضاء الخارجيّ العالَميّ. أعتقد أنّ التربية والتعليم المُنفتِح بدأ يؤتي ثماره. لذا لا بدّ من إثارة أسئلة عدّة قد توضح موضوع الهويّة والصراع مع اليافعة كما مع البالغين.

إنّ احتلال العراق للكويت في العام 1990 خَلَقَ حالةً من البَلْبَلة والضبابيّة الفكريّة بشأن الولاءات. اختلطتِ الأمور على الجميع، فالاحتلالُ عربيّ وقائمٌ من طَرَفِ جارٍ، ومَن رزح تحت الاحتلال وعانى منه هو عربيّ وجار كذلك. كيف كان مُمكناً استيعاب دقائق الأمور، وبخاصّة التفاصيل الصغيرة التي تحدِّد الهويّة؟ كيف لنا أن نستوعب خيانة الأخ والجار؟ كيف لليافعات أن يستوعبْنَ قضايا الهويّة المهدَّدة، وخصوصاً تلك التي بدت معقَّدة جدّاً لأنّ مكوّناتها ـ وكما تبدّى لنا واقعاً ـ تأخذ سنواتٍ عديدة لتتشكّل وتختمر وتُعبِّر عن نفسها؟ هذا ما حدث وما أَحْسَسْنا به في هذه الفترة من تاريخ عالَمنا العربيّ. كانت مُعاناة أقاربنا من الجانبَيْن الفلسطينيّ والكويتيّ عميقة. كنّا فلسطينيّين وكويتيّين في آن، وقد وَعينا منذ البداية أهميّة أنّ تكون كلٌّ من الهويّتَيْن داعمةً للأخرى، وأن يكون ذلك جزءًا من تربية ابنتَيّ على الرّغم مِن التهديد والتعنيف وصعوبة الوضع في أثناء الاحتلال العراقيّ للكويت الذي استمرّ إلى ما بعد تحرير الكويت على يد التحالُف الذي ضمّ عَرَباً وغربيّين.

في العام 2021 وبعد مرور ثلاثين عاماً على تحرير الكويت (1991) ولأنّ ابنتَيّ تربّتا في أجواءٍ تُؤكِّد على هويّتيهما الكويتيّة والفلسطينيّة عندما كانتا صغيرتَيْن، انخرطتا في الشؤون الكويتيّة والفلسطينيّة كلّها. بدأت قضايا هويّة ابنتَيّ الفلسطينيَّتَي الأصل، والتي كنّا نعتقد أنّها خَبَتْ، تطفو على السطح من جديد. هل كان ذلك محض صدفة؟ المَولِد، والانتماء، والعائلة.. كلّ هذه الأمور جعلتهما تعيشان الجانبَيْن. إحساسهنّ بفلسطينيّتهنّ بدا للعيان بمنتهى الوضوح، بخاصّة عندما تفاقمت مشكلة حيّ الشيخ جرّاح في القدس المحتلّة. هكذا وَجدَت ابنتَاي تعبيراً جديداً لكلِّ أشكال المقاومة من تظاهرات، احتجاجات، مسيرات ومِن استخدامٍ كاملٍ لكلِّ وسائل التواصل الاجتماعيّ التي قامتا

بتوظيفها للدفاع عن هذه الهويّة المُستباحة. هذه الوصفة التي تمّ تكوينها وجبْلها عندما كانتا صغيرتَيْن تبدّت بعد سنين عديدة. أي إنّ ما زُرع فيهما كيافعتَيْن عبَّرَ عن نفسه أمام التهديد وعندما سنحتِ الفرصة! عندما تعرّضت الهويّة للهجوم. والسؤال هل لهذا التذبذب في إبراز الهويّة عندما تتعرّض للعنف من أثرٍ في نفسيّة المُعنَّف؟

إنّ التماثُل والصراع من أجل التماهي مع هويّة الأغلبيّة فاعل جدّاً في هذا السرد وعلى أرض الواقع. هل نشعر بعدم التوازن أو الإحساس بعقدة تجاه الأغلبيّة العظمى التي تتمتّع بالأحقِّيَّة؟ هل إنّ حقيقة «استبداد الأغلبيّة» فاعلة هنا؟ ما دَور الفعل في المُتوارَث؟ ما دَور الثقافة والتعليم في المُتوارَث؟ ما دَور الديمقراطيّة السياسيّة والقدرة على التعبير عن الذات؟ كلّها أسئلة ومعضلات مشروعة ومطروحة أمام هذا الجيل لأنّها تعبِّر عنه وعن قضاياه التي لا تزال في طور التشكُّل والفَهْم.

يُمكن الرجوع إلى تفاصيل تجربتي الشخصيّة كسيِّدة كويتيّة فلسطينيّة، وبالتحديد تجربتي مع ابنتَيّ في أثناء الاحتلال العراقيّ للكويت في العام 1990، المنشورة بالتفصيل عندما كانتا في مُقتبل العمر.

«Two Months Under Iraqi Occupation: A personal Account». *Digest of Middle East Studies DOMES* (Winter 1993) Vol. 2, No.1, 29-39.